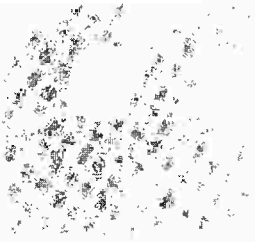

فى منزل الوحى

فى البيت العتيق

المسلمون على حقيقتهم

ما فوق الطاقة !

تصفية الحسابات

حواجز حديدية

مواجهة التطرف .. كيف؟

فى البيت العتيق

عائد من منزل الوحى، ومهبط الرسالات، ومبعث الرجاء لعالم إسلامى يواجه أصعب التحديات.. تقف شعوبه اليوم حيارى فى مفترق الطرق بين قوى التقدم والانطلاق والأخذ بأسباب العصر، وقوى عاتية كاسحة تشده إلى الوراء وتكبل حركته.

ولا يدرك الإنسان حجم هذه التحديات وخطورتها إلا حين يمارس رحلة الحج.. حين تمتزج قدسية الشعائر المتواترة عبر ١٤ قرناً عن الرسول الكريم، مع منجزات عالم مختلف شديد الإختلاف تتحرك فيه الطائرات والسفن بدلاً من الناقة والراحلة. وتقطع فيه السيارات فى دقائق أو ساعات ما كان يقطعه الحجيج فى أيام وشهور. وتمتد فيه الطرق الحديثة والكبارى المشقوقة وسط الجبال بديلاً عن المسالك الضيقة عبر الأودية والصحارى. وتنتقل فيه المياه العذبة عدة آلاف من الأميال لتسقى وتغسل وتروى ظمأ الملايين.

ويعلو هدير أجهزة التكييف ووسائل الاتصال.. يثير ذلك كله فى خيال المرء مقارنات مذهلة وتساؤلات حائرة، هى صلب أزمة المسلمين اليوم!!

والمتأمل فى شعائر الحج ومناسكه، لابد أن يلحظ هذا الإمتزاج الرائع بين تجرد روحانى من شواغل الأهل والولد والمال وإنكباب على العبادة والتلاوة والإبتهال، وبين مواجهة ضرورات الحياة والسعى فى مناكبها.. بين قوة الرمز الدينى وتغلغله فى مشاعر الإنسان المسلم وبين الاهتمام بالبعد الإجتماعى فى التضحية والهدى ونحر الذبائح وتوزيع لحومها على الفقراء..

يدرك المرء أن الحج بقدر ما هو سعى إلى الله وتوجه إلى بيته الحرام. هو فى نفس الوقت دعوة إلى الحركة والخروج والسفر والانتقال وتبادل المنافع والصداقات والتعارف بين المسلمين. ولهذا السبب لم ينقطع عقد هذا المؤتمر السنوى المقدس للشعوب الإسلامية طوال أربعة عشر قرناً..

يدرك المرء أن الجانب المادى فى فريضة الحج لا يقل أهمية عن الجانب الروحى فيها. ويصبح السلوك المادى والممارسة الجسدية للشعائر الدينية على نفس الدرجة من الأهمية للتجربة الروحية فى أعمق أعماقها وأدق تفاصيلها. لا يكفى أن يندمج الإنسان فى الجانب الباطنى للعبادة بل يجب أن يكون أداؤها على أدق وأرقى ما يكون للفرد المسلم.

هذا التوازن الدقيق بين حياة روحية غنية وبين حياة مادية متطورة

ومنظمة، هى المعادلة الصعبة التى يقف المسلمون عاجزين عن إنجازها.

وحين تشهد أكثر من ثلاثة ملايين مسلم يتزاحمون فى هذا الوادى الضيق فى مكة وما حولها، يؤدون شعائر الحج فى أوقات معدودات.. فسوف ترى العالم الإسلامى على حقيقته!

المسلمون على حقيقتهم

يشهد المرء فى موسم الحج عظمة الإسلام وقوته، بقدر ما يشهد ضعف المسلمين وتخلفهم.. صورة بانورامية كونية عالمية، دقيقة التفاصيل، واضحة الملامح، متعددة الألوان تكشف عن عبقرية العقيدة وشمولها وبساطتها من ناحية. وتكشف عن وهن أصحابها من ناحية أخرى.

فقد ظلت شعيرة الحج ـ وهى من الأركان التى لا تجب إلا على من استطاع إليها سبيلا ـ تلهب مشاعر المسلمين وأفئدتهم قرونا طويلة. تدفعهم إلى زيارة البيت الحرام يأتون إليه من كل فج عميق.. هذا الدافع الخفى، هذا الوازع القوى الذى يسوق مئات الألوف من كل الأجناس فى قارات العالم الخمس. تختلف لغاتهم وألوانهم وأمزجتهم وثقافاتهم، وتختلف شرائحهم الإجتماعية ودرجة تعليمهم.. يمثل فى وجدان كل مسلم نوعا من

الخلاص الروحى، انعتاقا من الذات، ولادة جديدة بأى معنى من المعانى.

والفكرة فى سموها وبساطتها فكرة عظيمة يمكن أن تولد قوة دفع هائلة تحرك المسلمين وتقودهم إلى الأمام..

ولكنك تنظر فى المرآة فلا ترى إلا صورا للبؤس والتعاسة والتخلف..

ألوف مؤلفة من الحجيج يفترشون الأرض فى مكة والمدينة ومنى، معظمهم من حجاج الدول الإفريقية والآسيوية الفقيرة، أو من المصريين البؤساء من ضحايا شركات النصب السياحى التى تتحايل على الاعداد والتأشيرات التى تضعها السلطات السعودية.. تقذف بهم بلادهم دون إعداد أو استعداد.

وما توفره المملكة من إمكانيات وتسهيلات لإستيعاب هذه الأعداد الضخمة يفوق كل تصور. فالتوسعات التى أدخلت سواء على الحرم المكى أو الحرم النبوى، والشوارع والطرق والأنفاق التى شقت فى بطون الجبال، وتوفير المياه والطعام ووسائل النقل والإتصال تجرى بأعلى درجة من الكفاءة.

وفى منطقة مثل منى التى تخلو من المرافق وتتحول إلى مدينة هائلة من الخيام يقضى فيها عدة ملايين من المسلمين ثلاثة أيام أو أربعة، تصل المشقة وإحتمالات الخطر من المرض والأوبئة إلى ذروتها. ويتحتم على كثيرين قضاء ليلهم ونهارهم وحاجتهم فى عرض الطريق.

ولذلك فإن المشروع الجديد الذى أعلنت عنه المملكة للبدء فى بناء مساكن للحجاج فى منى بدلا من الخيام، يعد خطوة هائلة على طريق الإرتقاء بالسلوك الإنسانى للمسلم.

ولكن الفجوة الهائلة بين عظمة العقيدة وبين الإنهيار الحضارى للشعوب الإسلامية يضع عقبات يصعب التغلب عليها.

مافوق الطاقة!

عدد الحجاج الذين يأتون من أرجاء العالم الإسلامى يبلغ فى المتوسط أكثر من مليونى مسلم. ولكن لا يضاف إليهم حجاج المملكة نفسها سواء من أهل البلد أو من المقيمين والعاملين فيها من جنسيات أخرى، فقد يصل العدد إلى نحو [illegible] من سنة

ولأول مرة ظهرت بين الحجاج فئات إسلامية من بلاد لم تكن تعرف طريقها إلى الحج.. معظمهم من الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى التى حجبها الحكم الشيوعى وحرمها أكثر من سبعين عاما عن ممارسة الحرية الدينية. وكنت ترى علامات منهم لا يعرفون غير اللغة الروسية أو الأوزبكية أو التركمانية يتحركون وسط أرتال الحجاج، ترتسم على وجوههم علامات [illegible] من ماضٍ سحيق!!

من الواضح إذن أن مخزون العالم الإسلامى فى آسيا وأوروبا الشرقية سوف ينفتح ليزيد العدد إلى أربعة أو خمسة ملايين نسمة.

فما الذى يمكن أن تفعله المملكة لمواجهة هذا الموقف؟

إن الاستعدادات والإمكانيات الحالية، على الرغم من التوسعات الضخمة والانفاقات الهائلة لن تكفى لاستيعاب الأعداد المتزايدة فى الأعوام القادمة. وسوف يصبح من الضرورى أن توضع نظم أكثر دقة وأحكاما، لضبط أعداد الحجاج، وفرض حصص مقننة على الدول والشعوب الإسلامية لابد من الإلتزام بها بكل صرامة ودون تساهل.. بحيث تتحول عملية الحج إلى ممارسة روحية حضارية، تعكس قيم الإسلام ومثله العليا، وتحافظ على الفرد المسلم وتحفظ له كرامته وإنسانيته..

ولن يتحقق ذلك إلا بتقليص الأعداد المسموح لها بالحج، حتى تتناسب وقدرة المرافق والطرق والمشاعر المقدسة على الاستيعاب، الذى يضمن انسيابا فى الحركة ودرجة للزحام تتحملها الطاقة الإنسانية ولا تنوء بها.. على نحو قد يبدد جو الرهبة والخشوع، ويحول بعض المناسك إلى صراع من أجل البقاء.

ونحن نعتقد أن من حق السلطات المسئولة فى المملكة ألا تشعر بأى حرج حين تحدد ما تراه ملائما من أعداد للحجاج كل عام، بحسب القدرة المادية للمرافق والإمكانيات على الإستيعاب طبقا لقواعد عادلة وأولويات مقبولة.

فنحن الآن فى عالم يقيس درجة التقدم بمدى ما يلقاه الفرد من معاملة إنسانية فى كافة أوجه الحياة. وموسم الحج مرآة تعكس فى تفاصيلها الدقيقة وضع العالم الإسلامى على حقيقته.

تصفية الحسابات

لسبب أو لآخر يتحول موسم الحج إلى موسم لتصفية الحسابات الإسلامية. مع أن القاعدة المثلى التى يدعو الإسلام إليها، هى نبذ الخلافات وإنتهاز هذه المناسبة الكريمة لإقامة شكل من أشكال التكامل، يعكس وحدة العقيدة ووحدة الجماعة الإنسانية.

ولكن منذ بدأ الحديث عن ظاهرة الإسلامى السياسى أسقطت كثير من النظم والجماعات هذه القاعدة.

فى أعوام سابقة حاول الإيرانيون إثارة الخلافات والمناقشات، وتسيير المظاهرات وإطلاق الهتافات والشعارات أثناء الحج. ووقعت بعض الحوادث أفسدت جو الحج وروعت الكثيرين.

ثم جاء دور ما حاوله العراقيون بعدها فى ظل الأحداث التى نجمت عن غزو الخليج، ولكن على الرغم من أن موسم الحج مر هذا

العام بهدوء ودون مشاحنات ظاهرة، وأدى الإيرانيون شعائرهم مثل غيرهم دون جلبة أو شقاق، إلا أن الضجيج والخلاف هذه المرة جاء من أجزاء أخرى من العالم الإسلامى: من ليبيا والسودان والأردن.

فقد أعلنت ليبيا على لسان متحدثيها أن المملكة السعودية منعت دخول الحجاج الليبيين.. وطالب العقيد بأن توضع الأماكن المقدسة تحت إشراف لجنة من الدول الإسلامية!

ومن الواضح أن ليبيا هى التى منعت مواطنيها، وأن الضغوط الدولية التى تتعرض لها ليبيا بسبب حادث لوكربى هى السبب. لأن السعودية أعلنت استعدادها لنقل الحجاج الليبيين وحصلت على إذن بذلك من مجلس الأمن.

وأما السودان فإن أجواء الأزمة بين حكومة البشير والسعودية خيمت بدورها على الحجاج السودانيين.. وادعت السودان أن المملكة ترسل أسلحة لمساعدة قرنق وأنها تمنع الحجاج السودانيين من الحج. ونفت السعودية ذلك.

ثم أثار الأردن ضجة حول إصلاح المسجد الأقصى وترميم قبة الصخرة. وهى التى أعلن الملك فهد تحمل السعودية لكافة نفقاتها، ولم يعجب ذلك الملك حسين الذى يعتبر نفسه مسئولاً عن المسجد الأقصى وإن كان لا يملك الوسائل لذلك.. فما هى المشكلة!

المشكلة أن كثيراً من قيادات العالم الإسلامى والمتصدين له، تشغلهم توافه الأمور عن جلائلها، وينفقون الجهد والمال والوقت فى شكليات لا تغنى بهدف تحقيق منافع خاصة.

وحين تصبح هذه هى المشاكل التى تؤرق العالم الإسلامى، بالإضافة إلى مشاكل مثل حلق اللحية أو إطلاقها، ولبس الجلباب أو النقاب، ومنع الموسيقى وتحريم الإختلاط فى الجامعات.. فماذا يمكن أن نتوقع؟

حواجز حديدية

فى جو روحانى بعيد عن الشواغل والمشاغل أتانا نبأ إغتيال د. فرج فودة.. لم يكن قد بقى غير ساعات قليلة على بداية مراسم الحج والوقوف فى عرفات. وقد طغت مشاعر الإستعداد للقاء والدعاء، وغابت عن القلب هموم الدنيا وأسبابها.. ما يعج فيها من ضلالات وأوهام، وأحقاد ومنافسات.

ووقع النبأ على رؤوسنا كالصاعقة..

فقد تركنا القاهرة والناس تتهيأ لأيام عيد الأضحى وأجازاته، وقد ساد انطباع عام بأن أحداث الفتنة الطائفية التى ظللت الأيام السابقة والمصادمات التى وقعت فى أسيوط وديروط على نطاق ضيق قد تم إحتواؤها بعد أن سارع عقلاء الأمة من الجانبين إلى إطفاء نار الفتنة والغوص فى جذورها.

وكان من الطبيعى أن تسارع أقلام مختلفة إلى إلقاء الضوء على

الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى اندلاع نيران هذه المصادمات الطائفية. وقيل كلام كثير.. ظل معظمه معلقا فى الهواء بعيدا عن الواقع.

وقد ظن البعض أن مجرد تسفيه مواقف العناصر المتطرفة والطعن فى آرائها ومعتقداتها، والتأكيد على سلخ هذه العناصر من الإسلام ونزع غطائه عنها، كفيل بتعريتها وإسقاطها والقضاء عليها وعزلها عن المجتمع.. بحجة أن الدين شئ مقدس لا ينبغى أن نخلط بينه وبين ما تقتضيه سياسات النظام والمجتمع وإحتياجات الحياة اليومية من متغيرات.

وكان د. فرج فودة من أكثر الذين تحمسوا لهذا الإتجاه وأفاضوا فى الحديث عنه، إلى حد إتهامه بالعلمانية وبالدعوة إلى فصل الدين عن الدولة.

وظن البعض الآخر أن الحوار مع هذه العناصر، وشرح مفاهيم الإسلام وتخليصها من القشور الإرهابية والنزعات التعصبية.. هى النهج السليم، مع التأكيد على أن الدين وأحكامه هى قوام الحكم والحياة فى المجتمع. وإن كانت الدعوة إلى ذلك ينبغى أن تتم بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفى مجتمع يستوى فيه الجاهل والعالم، وتزيد نسبة الأمية فيه على خمسين بالمائة ونسبة البطالة فيه على ٢٥ بالمائة، وتتولى وسائل أعلام قاصرة وأشرطة كاسيتات ملوثة تحوى أطنانا من الأغانى والمواعظ الهابطة، مهمة التثقيف والتوجيه والتفكير..

فإن الغالبية من هذه العناصر المتطرفة ومن يأتمرون بأمرهم من أمراء الجماعات، لا تسمع ولا تستمع إلى أية حجج عقلية أو براهين كلامية يسوقها أى من التيارين: هذا الذى يمثله فرج فودة أو ذاك الذى يقوده رجال الدين.

هناك حاجز حديدى صلب يفصل بين جماعات المسلمين، بنفس القدر الذى يفصل بين الأمم والشعوب الإسلامية؟!

مواجهة التطرف.. كيف؟

مسلسل الغلو والتطرف فى الحركات السياسية فى الإسلام ليس جديدا. وقد شهد التاريخ الإسلامى منذ عهد الخوارج أشكالا وألوانا من الغلو والتشدد فى الدين أدى إلى القتل وإستباحة الأموال والدماء.

وفى معظم الظروف التى ساد فيها تيار العنف والغلو بديلا عن الحوار والتسامح، كانت المجتمعات الإسلامية تمر بمرحلة من إختلال التوازن الفكرى والإقتصادى، وتتعرض لضغوط خارجية وداخلية، وهو ما يسمح عادة بنشوء بؤر معزولة داخل المجتمع، تفرخ فكرا خاصا بها، وتبحث عن الشرعية من خلال مزيد من غلو يفضى إلى عنف.

ولا تخرج حوادث العنف والإغتيال الدينى السياسى التى وقعت

فى مصر وفى غيرها خلال الفترة الأخيرة عن هذا السياق. وآخرها حادث إغتيال فرج فودة، الذى وقع فى ظل ظروف إقتصادية وسياسية صعبة. وفى وقت تتعرض فيه المنطقة العربية والإسلامية عموما لضغوط شديدة من الخارج والداخل.

وفى موسم الحج لا يملك المرء إلا أن يلحظ اشتداد موجة الغلو فى الدين والإتجاه إلى الاهتمام بالشكليات والقشور، وتجنب مواجهة المشكلات الحقيقية التى تمثل تحديا للعالم الإسلامى وتطوره.

ويضاعف من حدة هذه الظاهرة غياب قنوات التفاهم والتواصل بين قطاعات المسلمين من أجناس وأعراق وثقافات مختلفة... صحيح أن الدين يوحد بينهم وأن شعائر الحج والعبادات لا تكاد تختلف بين مسلم من السنغال وآخر من أندونيسيا ولكنك بإزاء كتل مصمتة من البشر، تنهض بينها حواجز سميكة، يعمقها جهل شديد بالآخرين يتميز بالتخلف والتباعد. ومخاوف سياسية قديمة زرعها الاستعمار وغذاها.

إن الكثيرين يطالبون بأن تشدد الدولة قبضتها فى مواجهة العنف والتطرف والغلو فى الدين. وقد يكون ذلك لازما ومطلوبا فى حالات يستغل فيها ضعف السلطة وإنهيار الأمن. ولكن الحقيقة الثابتة هى أنه لا الإستئصال الأمنى وحده.. ولا وسائل الحوار وحدها، سواء تلك التى تعتمد الفكر العلمانى أو التنوير الدينى سوف تقوم إعوجاج الجماعات المتطرفة، بل لابد من برنامج شامل للمواجهة يدخل فيه البعد الإجتماعى والسياسى... يفتح الطريق

أمام تطوير المجتمعات الإسلامية والإرتقاء بمستواها التعليمى والإقتصادى والفكرى.. لكى يتحول المد الإسلامى القائم على الإنغلاق والتشدد والخوف من الآخر والإنعزال عن تيار العصر، إلى حركة إسلامية مستنيرة تقضى على الأنماط السلوكية الجامدة التى عوقت الفكر الإسلامى وأصابته بالشلل وحجبته عن التقدم والتكيف مع العصر الحديث.